

دود على عود

للدكتور محمد عوض محمد

هواؤه ، وأظلك دوحه ، وأنضجتك شمسه ، مالك لا تحس لفرقه
جزعا ولا أسفا ؟ بل كأنك بهذا الفراق جد مغتبط ، ولهذا
الرحيل مشتاق متلهف ! لا تحاول الإنكار ! ان سرورك بهذا البعاد
أكبر من أن يخفيه التكلف ، وما أنت ممن يحسنون تصنع الأسف ،
بل إن بك شوقا شديداً باديا لمغادرة هذه الديار ، وكأنك لا تحيا
بيننا تلك الشهور من كل عام ، إلا لكي تقضى هذه الأشهر بعيداً عنا
فيأجعبا ! أى شيء هذا السم الزعاف الذي يملأ هواه بلادنا ،
ويحملنا على أن نجسد في البعد عنها ، ويُنفّر الابن البار من أمه
البرّة ؟ أهو هواؤها الحار ، أم يجتمعها الفاتر ، أم ما يحيق بها من
ظلم وجحود ، ومن حرج وضيق ؟

لقد أخذت سفينتك تبعد ، ولم تلبث أن اختفت عن الابصار
وأضحت كامل البأس لا تزداد علي المدى إلا بعداً . وكأنني بك
واقفاً على ظهرها ، تنفس نفساً عميقاً ، لكي تخرج من رتيك
ما قد ثوى فيهما من هواه ؛ كأنك لا تريد أن تحفظ حتى بهذا
القدر القليل من الذكرى ... بل تريد أن تأخذ عدتك لحياة
جديدة ، وأيام سعيدة . فما أخلفك ألا تبقى للشقاء الغابر في
نفسك أثراً !

لكن أمامك في السفينة أيامٌ لا أراني غابطك عليها ، بين
أناس قد اتخذوا الدعة شعاراً ، يصبحون كسالى ، ويمسون كسالى ،
لا يعرفون رجداً ولا دأباً ، أنصى همهم أكلة لذیذة يصييونها ! أو
رقدة طويلة يستطيعونها ، وما عرفت الناس أدنى إلى الأنعام في
مكان منهم على ظهر سفينة ... قصاري جهد كل منكم أن يقتل
الوقت ، وأن يتخذ لذلك سبلاً شتى : فكم العاكف على الشراب ،
لا يشقى غليله الاسراف فيه . ومنكم المكب على الورق يتسلي
باتلاف القليل من دراهمه أو الكثير . وبعضكم يلتمس اللهو في
العباب نافهة ، أو في تقلب صفحات كتاب هزيل . إذ لا يستطيع
أن يحشم نفسه مشقة أو جهداً .

ولقد تقدم العالم في طريق المادة ، وجاء الاختراع بسفن ذات
قوة وجسامة ، ولكن الركب ما برحوا اليوم كما كانوا في قديم
الزمن : دود على عود !

وأحسبك تتوهم أن سيتاح لك وانت بالسفينة ان تلتقي بأعظم
الرجال ، واجمل النساء ، ولست ادري علي أى عهد قام في
نفسك مثل هذا الرجاء ؟ وهو لعمرك جدير بما يصيبه من

ها أنت ذا ، أيها الصديق ، قد استويت ومن معك على ذات
الواح ودسر . وقد أذنت ساعة الرحيل ، ولم يبق بد من الفراق ،
فلم نجد مناصاً من النزول الى البر ، تاركك على ظهرها ، غير
أسف لفراقنا ، ولا مستشعر لوعة على تركنا ... وانطلق
الصفيروالزئير يشقان الفضاء ، فاذا السلام تدرفعت ، والاهلاب قد
جذبت من قاع البحر . وإذا سفينتك آخذة في الابتعاد على مهل
كأنها لا تريد أن تولمنا ببعدهم مرة واحدة ؛ وإذا مناديلنا تخرج
من جيوبنا بيضاء ناصعة ، وقد حملتها الايدي أعلاماً تهزها هزاً ؛
وبين الجوانح قلوب تحفق خفقان الاعلام ، ولكن أعينكم لا تراه .
وها أنتم أولاء وقوف بأفريز السفينة ، تحفق مناديلكم بأيديكم
خفقاناً فاتراً ، لم ينبعث من قلب حزين ، ولا نفس أسفة ؛ وعلى
نفورك ابتسامه تعبت في تأويلها وتفسيرها ؛ وأحسبها ابتسامه
الرائ والاشفاق : إنكم ترثون لنا ، معشر المقيمين ، وتظنون
الينا كأننا من نوع آخر غريب عنكم ، نوع يعيش عيشة
الاشجار : تنشأ حيث تفرس ، ثم تنمو عليها الغصون والاوراق ،
والزهر والثمر ؛ وهي باقية في مكانها لا تبرح : وكلما تقدم بها العهد
ازدادت تشبهاً بمنبتها ، وتعلقاً بمغرسها ، لا تعرف ما ركوب البحار ،
ولا لذة التنقل والاسفار ...

أجل كنتم تنظرون الينا نظرة اشفاق ، وكأنكم بعض الآلهة
تلقى نظرة من السماء على ما دونها من الكائنات ... وفي تلك
الساعة رأيت دموعاً كثيرة تنهمل ، ولكنها كانت تتساقط من
عيون المودعين ، لا الراحلين ... فياويل الشجى من الخلى ! وياويل
المجهود من المجدود !

وعجبت لك أيها الصديق ، كيف ترحل عنا باسم الثغر ، قرير
العين مثليج الصدر . وأنت تعلم أنك راحل عنا أشهراً طوالاً ،
لا ترانا فيها ولا نراك ، أليس للود القديم حرمة ، ولا للحب
لمؤلف رعاية ؟ وهذا الوطن العزيز الذي أنبتك ثراه وغذاك

الحنية المرة بعد المرة . انك تظن أن العظمة والجمال في العالم من الكثرة بحيث يجوز أن يكون لكل سفينة تشق البحار نصيب منهما ، وخيل إليك أن السفينة خير دار تلقاها فيها ، حيث لا مفر لها منك . وأن المجال الضيق كفيلا بأن يجعل الناس بعضهم مقبلا على بعض ، والوقت طويل مديد ، لا بد للناس أن يتعاونوا على قطعه بالحديث والسمير : فالفرصة اذن مؤانية — فيما كنت تزعم — لأن تنعم نفسك بحديث العظمة ومرأى الجمال . وما اشد ألمك حين ترى نفسك بين اناس ككل الناس ، او انه من كل الناس . وان المجال الضيق قد حال بينك وبين الهرب منهم . والوقت الطويل الفسيح قد حباك الفرصة اللازمة لأن تعجب كيف استطاع بنو الانسان ان يشتملوا على كل هذه التفافة والبلاهة .

لكن ، صدقتي ان الذنب ذنبك انت اذ تركت نفسك يخلق بها الامل الكاذب . فليست ام الدنيا ولودا للعظمة والجمال بالدرجة التي صورها لك الوهم . وما جل بذنها لو فتشت الا الطعام . وليس يبدع ان خلت سفينتك مما كنت تتمناه ، ثم نظرت حولك فلم تجد على ظهرها سوى دود على عود

ولقد تشرق عليكم الشمس صباحا ، وماؤها الروعة والبهاء ، فتضرج وجنات المشرق بالنجيع ، ثم تسكب على صفحة الماء نضارا وسحرا ، وأتم في أسرّتكم الضيقة القلقة راقدون ، يحاول كل منكم النعاس وسط دمدمة الآلات ، وصرير الابواب والجدران ؛ فلا تصيبون من النوم سوى شيء غريب ، ليس بالنوم الهادي ، ولا باليقظة أو السهاد ، بل هو أشبه بغفلة المخدّرين ، تتخللها إفاقات قصيرة المدى . . . وأخيرا تنهضون من رقاكم المضطرب ، ويقبل بعضكم على بعض تتساءلون ، وتحدثون أنه الحديث .

وعند المساء تميل الشمس إلى الغروب ، وقد أحاطت بها السحب ، طبقات بعضها فوق بعض ، وهي تنحدر وسطها في شيء من الحيرة ، كأنما تلتبس بينها طريقها إلى المغرب . تارة تحتجب وراء سحابة قائمة حمراء ، وطورا تستتر وراء أخرى استتارا جزئيا لا يكاد يخفيها ، كأنها الحسنة في الغلالة ، وتارة تنحسر السحب عنها تماما ، فتبدو للعين كاملة ، لكنها ضعيفة لاتبر البصر ، وكأن سير النهار قد أنهك قواها وأدال منها . فبات من السهل عليك أن تقف أمامها ، محذقا في محياها آمنا ، وهي كلما ازدادت ميلا إلى المغيب ازدادت ضعفا وسقما . . . لكنها استطاعت أن تملأ السماء بشماع أحمر قاني . ، ونشرته أيضا على صفحة الماء ؛ وقد اختلطت هذه الألوان كلها بعضها ببعض ، فكان منها صور

تعجز الوصف . رأنت تذكر أيها الصديق ، أننا قد اتفقنا — وقبلنا نتفق — على أن هذا المنظر : الشمس الغاربة وسط السحاب المنشور ، فوق صفحات اليم ، هو أبدع شيء في الطبيعة كلها ! وما أخالك إلا ألما أشد الألم ، حين تنظر إلى من معك من أهل السفينة ، تحاول أن تتحدث اليهم بما يبعثه هذا المنظر في نفسك من إحساس وإجلال . . وفي تلك اللحظة يؤذن مؤذن العشاء ، فاذا هم يغادرونك في شعرك وسحرك ، ويتسللون الى حجرة الطعام ، راغبين عن لذة لا يعقلونها إلى لذة يفهمونها ويستمرثونها . . . وإن الصخور الصماء لنحس من معاني ذلك الغروب البديع أكثر مما تحسه أفئدة أصحابك هؤلاء . وما هم ، لعمرك ، سوى دود على عود .

ولقد يكون البحر لكم أول الأمر صديقا ، وبكم رفيقا . ولكنه بعد ذلك قد ضاق بكم ذرعا ، فأراد أن يريكم أنه مثلكم يا بني آدم ، ليس ذا وجه واحد . بل لإن له أوجها كثيرة ، وقد أراكم من قبل صفحة فيروزية زرقاء ، ووجها هادئا ، أملس ناعما . كأنه سهل فسيح من مرمر أزرق . وكانت جاريتم تجري عليه في اعتدال واتزان ، لاتهنز ولا تميل ولكم فرح بذلك مسرور . تحسبون أن الوقت قد طاب ، وأنكم بنجوة من العذاب . ثم رأى البحر أن يريكم وجها من أوجهه الأخرى . فعبس وتجهم ، وثار ومار ، وتطايير من وجهه الشرار . وانقلب صفاءه إلى كدر ، وهدوؤه إلى انفعال ، وحلمه إلى جهل ، ورزاقته إلى رعونة ، وعلا موجه من كل جانب ، ووثب رذاذه على باخرتكم ، ودخل إلى نوافذ حجراتكم ، وجعلت السفينة تتمايل من اليمين إلى اليسار ، ثم من اليسار إلى اليمين ، ومن الخلف إلى الأمام ، ثم من الأمام إلى الخلف ، سكري من غير سكر ، صرعى من غير صرع .

ولم تك إلا لحظة حتى انقلب اطمئنانكم إلى اضطراب ، وامتلات نفوسكم جزعا وقلوبكم هلعا . وانصرفتم عن الطعام والشراب ، وعن اللعب والحديث ، واستحالت رؤوسكم إلى قطعة من صداع وأوجاع ، وضعفت أرجلكم عن حمل أجسامكم ، فارتيمت على سرركم ، وأسلمتم أمركم إلى بارئكم .

فيا عجب ! لقد أمعن الانسان في الابداع والاختراع ، واستحدث كل هذه السفن الهائلة ذات السرعة والفخامة . . . ثم لا يزال ركبها اليوم كما كانوا في عهد عمرو وعمر : دود على عود

تلك أيامكم على ظهرها أيها الصديق . وإنني لأرجو لك بعدها سفرا هينا ورحلة ميمونة ، وما أجدرك ألا تجعلها كلها عبثا ولعبا ؟